جوتـه والشرق الإسـلامـي

شريفي عبد الواحد
جامعة وهران

I ـ مقدمة لا بد منها :

يوهان فلفانج جوته Johan Wolfgang Geothe (1749 - 1822) كاتب ألمانيا الكبير ، ورمز من رموز ثقافتها . لم يدع حقلا من حقول المعرفة الا وتوغل فيه، مخلفا أعمالا أضفت عليه الخلود وكفلت لاسمه البقاء إلى الأبد . عاش حياة غنية بالحركة واتصل بعظماء عصره ، واطلع على ما يحدث في قصور الأمراء وما يثار فيها من قضايا سياسية وفلسفية وادبية ....

جوته من أكبر الأدباء الالمانيين الذين ارتبطت أعمالهم بتجاربهم الشخصية ، أولئك الذين يعيشون الأزمات ويتألمون منها قبل أن يكتبوا عنها .... هو صديق شيلر وهيردر وفيلاند وكارل أو جست . وهو صاحب "كلافيجو" و"افجيني" و"تاسو" و" الثعلب الظاهر " و"فاوست" و"الديوان الشرقي" و"باندورا" و" آلام فيرتر " .... إنه هوميروس المانيا ، الفنان المخضرم الذي طور الملحمة الألمانية ، وأخرج الأدب الألماني من دائرته الضيقة إلى أفق واسعة ... الرجل الذي دعا- دوما - إلى تحرير الإنسانية من كل أنواع العبودية ومن الاحكام المسبقة ، يقول عنه نيتشه .

" ينتمي جوته إلى نوع من الأداب هي أرفع وأرقى من الاداب القومية .. فهو ليس بمثابة الإنسان الطيب والرجل العظيم فحسب ، بل هو حضارة بأكملها ..." (1)

ومن المعروف أن هذا الفنان علق أهمية قصوى على العنصر الشرقي – الإسلامي في كتاباته . ولقد اعترف هو نفسه أنه مدين لهذا الشرق العظيم الذي علمه دروسا في الحكمة والفلسفة ، وزوده بالأدوات الضرورية التي سمحت له أن يوازن بين عالمين مختلفين في السلوك والنظرة إلى الحياة (الشرق والغرب) ومكنته من التعبير عن همومه بكل حرية وطلاقة ...

لقد كان جوته معجبا فعلا بالشرق الإسلامي وقع في دائرة سحره واستلهم منه كل ما يخدم أفكاره وفلسفته . خصص له مجالا واسعا في أشعاره "الديوان الشرقي " واستعان به وبدياناته وثقافاته ومشاهده في مسرحياته وروايته واعتنى به في يومياته ومراسلاته .

II- مصادر جوته الشرقية :

1/- الثقافة العبرية :

درس جوته ، وهو في العاشرة من عمره ، الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، وقرأ آثار هوميروس وفرجيل ، مثلما قرأ القصص الأوروبية والكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والجديد ، متأثرا به أيما تأثر . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره درس اللغة العبرية على يد الأستاذ البرشت ، وظل لمدة ثلاث سنوات يقرأ النصوص العبرية من أجل استيعاب الثقافة اليهودية .(2)

2/-القرآن الكريم :

بعد المامه باللغات الفرنسية والانجليزية والايطالية والعبرية ، عكف جوته على القرآن الكريم فقرأه في ترجمة ميجران عام 1781 ، ثم قرأه ، مرة ثانية عام 1782 ، في ترجمته اللاتينية التي قام بها ماراتشي ، وقد أعجب كثيرا بكتاب المسلمين وترجم منه بضع ايات إلى اللغة الألمانية . يقول جوته :

" إن محمدا ، هذا الرجل العظيم الخارق للعادة نبي وليس شاعرا ... وتبعا لذلك فإن القرآن يعد قانونا الهيا ، لا كتابا إنسانيا .... وأسلوب القرآن يتفق مع مضمونه وغرضه محكم ، سام ، يثير الدهشة ويبلغ قمة السمو فعلا " .(3)

ولا بدّ من الإشارة – هنا – إلى أن جوته اعترف في العديد من المناسبات، بأنه مدين إلى القرآن الكريم بقسط وافر من الفضل في ثقافته الروحية والعقلية . والمطلع على " الديوان الشرقي" يلاحظ أن للإسلام في هذا الكتاب النصيب الأوفر " . يقول جوته :
" إذا كان الإسلام معناه التسليم لله ، فعلى الإسلام نحيا ونموت " .

3/-الأدب العربي القديم :

يبدو أن جوته ، اعتنى كثيرا بالأدب العربي القديم ... فلقد قرأ المعلقات الجاهلية في ترجمة جونز الألمانية .... واطلع على العديد من النصوص العباسية المترجمة ..... ولا يستبعد أن يكون قد اطلع على أهم الدراسات الاستعرابية التي نشرها المستشرقون في عصره أو في العصور السابقة يقول جوته :
" نجد عند العرب كنوزا رائعة في المعلقات التي كتبت بحروف من ذهب وعلقت على أبواب الكعبة . وهي تعطي فكرة عن شعب بدوي ، راع ، ومحارب ، وتعبر عن الشعور بالشرف والشجاعة والكرم والإخلاص .... معلقة امرئ القيس رقيقة ، بهجة ، لماعة ، أنيقة . وأما معلقة طرفة فجريئة ، حية ، وثابة . وقصيدة زهير قاسية ، جادة ، عنيفة ، حافلة بالحكم والجمل الجليلة... وقصيدة لبيد غرامية تذكرنا برعوية فرجيل لأنه يشكو من كبرياء الحبيبة، ويتخذ من ذلك فرصة لتعداد مناقبه والتفاخر بقبيلته "[4]

4/- الف ليلة وليلة :

كان جوته ، في مرحلة الطفولة ، لا يفارق جدته التي كانت تغذي خياله بقصصها الشيقة المستمدة من حكايات شهرزاد الشهيرة وتبث فيه من روحها المرحة اللطيفة ... أما في مرحلة الشباب ، فكان يستسلم بهدوء لعوالم "الليالي " الخلابة .... كان يقرأ الحكايات العربية باندهاش لأنها تتيح له سبيل الهروب إلى عالم السحر العجيب ، عالم لم يألفه من قبل في الآداب الأوروبية
ويبدو أن جوته ظل يرجع إلى " الليالي " في فترات منتظمة من حياته . لقد كان يلعب دور شهرزاد عندما تتاح له الفرصة و يروي على مسامع ضيوفه بعضا من حكاياتها .
تقول الباحثة كاترينا مومسن :
" كان جوته ، في صباه وفي شيخوخته ، يستخدم رموز " الليالي" في رسائله .... ومذكراته . كان في جميع مراحل حياته ، يرجع إليها ليسألها النصح والإرشاد في بعض القضايا ... وقد منحها مركزا خاصا هو مجال السرد القصصي الخيالي الذي يصل إلى حدود عالم الأساطير "[5] .

5/-الأدب الفارسي :

كان إعجاب جوته بالأدب الإيراني شديدا .... فلقد أقبل عليه يقرأ كل ما ترجم منه : قرأ قصة " مجنون ليلى " التي نظمها الشاعر المشهور نظامي والتي ترجمها هارتمن إلى الألمانية عام 1807 ..... ثم اطلع - بعد ذلك - على كل ديوان نظامي بعد أن ترجمه الباحث فون هامر إلى الألمانية ...
ومن المعروف أيضا أن جوته أطلع على ديوان الشاعر شمس الدين حافظ الشرازي بعد أن ترجم إلى اللغة الألمانية ... ويبدو أن هذا الديوان قد أثر فيه
تأثيرات بالغة الأهمية يقول :
" ما أعجبني في حافظ : إقباله على السرور وعلى التمتع بكل ما تأتي به اللحظة الحاضرة ، كما استهوى فيه سخريته من الزاهدين العازفين عن الحياة .... شعره يفيض حيوية ، يأخذ بحظه من متع الحياة ، وينفذ من بعيد إلى طوايا الألوهية ....

أما نظامي فروحه لطيفة ، رقيقة الموهبة ، موضوعاته تثير في القارئ حنينا مثاليا ، إننا لا نعثر أبدا على الرضا الحق والتنوع العجيب إلا في أعماله .... " [6]
يمكن القول ، إذن إن جوته قد ألم بجميع الثقافات والمذاهب الدينية واللاهوتية ، ووقف على جميع الأساليب الكلاسيكية الموروثة عن مشاهير الكتاب . كان يحب النهم العقلي والملذات ويوثر معاشرة العباقرة والعظماء ... درس ثقافات الشعوب وتأثر بكبار أهل الأدب و الفن .... لقد دون كل ما وقف عليه في مولفاته لا يمل ولا يسأم ، فكان شاهد عصره يرسم بريشته البارعة مختلف وجوهه ومظاهره ...
ويعد " الديوان الشرقي للمؤلف الغربي" من أهم دواوين جوته التي تشيد بطبيعة الإنسان وتدعو إلى المؤاخاة بين الشعوب والأمم . وهو ينقسم إلى قسمين : الأول شعر ، والثاني نثر ؛ وهو عبارة عن تعليقات صاغها لشرح القسم الأول .
وسنحاول ، في القسم الثاني من هذه المداخلة ،أن نبرز صورة الشرق الإسلامي مثلما انعكست في مرآة الديوان الذي أعطى شهادة رائعة على " تأثير عبقرية الشرق في الآداب الأجنبية "

III/-غربة جوته النفسية :

ثمة ظاهرة سيطرت على الأدب الرومانتيكي ؛ في بداية القرن التاسع عشر ، هي ظاهرة الاغتراب الروحي ، ونعني بها تلك " الحالة الوجدانية العنيفة التي يشعر الأديب فيها بحاجة ملحة إلى الفرار من البيئة التي يعيش فيها إلى بيئة أخرى جديدة وجو آخر مخالف ، فيهما يحيا بخياله ما فيهما من حياة " [7]
ولقد تجلت هذه الظاهرة في أتم صورها في مستهل القرن التاسع عشر عند الأدباء الألمان والفرنسيين ،[8] وامتدت حتى شملت بعض الفلاسفة من ذوي النزعة الفنية . وكانت هذه البيئة الجديدة التي هاجر إليها هؤلاء الأدباء واغتربوا فيها بأرواحهم وخيالهم هي الشرق ، القاصي منه والقريب ...[9] ويعد جوته من أعظم الأدباء الذين تأثروا بهذه الظاهرة ووجهوها أحسن توجيه سواء في ديوانه الشرقي أو في مسرحياته وقصصه ....
ويبدو أن جوته كان يبحث في الشرق الإسلامي عن أسمى المواد والصور التي تمكنه من التعبير عن آرائه وهمومه . فهو- وعلى نمط الرومانتيكيين – اجتهد في تصوير البيئة التي هام بها ... وكان " خياله طموحا جموحا ، يتطلب مثالا له أينما وجده في غير زمانه ومكانه ، ولكنه لا يستوحيه أولا وآخرا إلا من ذات نفسه ، إذ فيها الشرارات الأولى التي تهديه الطريق وترسمه له . ولا يتاح له فهم ما تجيش به عواطفه وآماله إلا بالصور والأخيلة التي يضيفها على الحقائق ، لا ليتتكر لها ؛ بل لعله يهتدي من خلالها إلى سعادته .. " [10]
هذا الكلام يعني أن جوته كان يبحث في الشرق عن أسمى الموضوعات الرومانتيقية لكي يعبر عن ما سيه وهمومه ... كان يريد أن يستلهم منه موضوعات لأعماله خصوصا خلال تلك الأزمات النفسية التي كان يعاني منها (بعد أن تحولت ألمانيا إلى مسرح للحروب والصراعات السياسية) [11] ويبدو "أن صلته بالشرق غداة 1814 ، قد اتخذت صيغة جديدة ، واتجهت اتجاها آخر ، فلم يعد إعجابه مقتصرا على الغذاء الروحي وتلك المتعة الهادئة ، وإنما انتقلت إلى امتزاج قوي بين روح وروح ... فروح الشرق نفذت إلى أعماقه ، واتحدت بكل عنصر من عناصره فتفاعلت وإياه تفاعلا قويا ..... فلقد عانى في هذه السنة (1814) كثيرا من الدوافع والمؤثرات التي حملته على أن يتجه في تطوره الروحي هذا الاتجاه ... فنابليون الذي بهر العالم بأسره قد هوى وأصبحت في طي العدم أضواؤه ....لقد سقط الرجل العظيم [الذي كان يحبه جوته] وهبط من حالق بعد أن دوخ ما دوخ من أمم وشعوب ... ثم ، هذه الأحداث الضخام التي سبقت سقوط نابليون وأفضت إليه

، هذا القلق السائد والماثل في كل شيء ، كيف يقوى جوته على احتماله والتحديق بنظره فيه ؟ هذا الحاضر المتزعزع المتهافت ، أنى له أن ينشد الخلاص منه ؟ ...." [12]
لم يجد جوته إلا في الشرق الإسلامي سلوة وملاذا ومتعة بعد أن عاني ما عاناه من ضيق وهم ... ففي هذه البقعة الجميلة الشاسعة سيحقق أمانيه وسيعثر على الأساليب الجديدة التي تمكنه من التعبير عن همومه وأفراحه . إنه يريد أن يشرب من " عين الحياة " وأن يحيط نفسه بحوائل سميكة تقية من ذلك الفيضان الهائل الآتي من الغرب ، عالم الحروب والأشجان .
يشير جوته في مقدمة ديوانه إلى أنه يريد الهروب إلى الشرق بحثا عن ينبوع الخضر [13] الذي يعيد إلى الشارب منه الشباب . نراه يتأهب للرحيل إلى هذا المكان الجميل ينشد فيه الفرج .. هاهو يغادر – وكأنه متصوف يقصد مكانا مقدسا – قائلا :

دعوني وحدي مقيما على سرج جوادي ،
وأقيموا ما شئتم في دياركم ومضارب خيامكم،
أما أنا فساجوب من الأنحاء قاصيها على جودة فرسي،
فرحا ومسرورا لا يعلوا على قلنسوتي غير نجوم السماء

ثم يواصل ، ناشدا :

لله المشرق ،
لله المغرب
والشمال والجنوب
يستظلان بالسلام بين يديه

إن هذا الرحيل – هو في واقع الأمر – بعث لحياة جديدة يريد الشاعر أن يحياها ... إنه رحيل جليل وخطير فيه استجابة لوحي سماوي ورسالة قدسية عليا ناط الله بجوته تحقيقها . فهو أشبه ما يكون برحيل الأنبياء الذي يكون المرحلة الفاصلة ، لا في تاريخ حياتهم الروحية فحسب بل في تاريخ الإنسانية الروحي بأسره . وها هو شاعرنا يصف هجرته والأسباب التي أدت إليها والغاية المرجوة منها :

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ،
والعروش تثل ، والممالك تتزعزع وتضطرب
فلتهاجر إذن إلى الشرق في طهره وصفاته
كي تستروح جو الهداة والمرسلين ،
هناك حيث الحب والشرب والغناء ،
سيعيدك ينبوع الخضر شابا من جديد ،
إلى هناك ، حيث الطهر والحق والصفاء ،
أودّ أن أقود الأجناس البشرية .
فأنقد بها إلى أعماق الماضي السحيق ،
حين كانت تتلقى من لدن الرب ،
وحي السماء بلغة الأرض ،
أجل هناك أود التملي بحدود الشباب .

واللافت للنظر أن شرق جوته الواسع يتحول تدريجيا إلى روضة منشودة تفيض بالروح والريحان ، عالم مشرق وساحر ، جنة الدنيا والربيع الدائم ، مهد الحكمة والوحي . نراه – في الديوان – وقد تحول إلى حاتم الطائي ، بينما تصبح حبيبته التي تغني بها كثيرا زوليخا . وهو لا يجد أي حرج في أن يعتبر نفسه عربيا يؤمن برسالة الإسلام ، كما لا يرى أي مانع في أن تظهر محبوبته ماريان على صورة العشيقة العربية الصحراوية السمراء [14] .

وهكذا لا يتردد جوته في تصوير نفسه في صورة رحالة مشرقي مسلم ، يجوب الفيافي العربية ، كي يعرف طباع المسلمين وعاداتهم وما يجول في خاطر الرجال من أفكار وآراء ، وما يعتنق الأهل من ملل ونحل ... نراه يتحدث عن الديانات (الإسلام – اليهودية – المجوسية ..) ثم ينتقل ليصف الرقي والتماتم وغيرها من الخرافات الشعبية الشائعة في الشرق ، محاولا أن يستخلص منها العبر والدروس ، وأن يكشف عما فيها من رموز ومعان خفية ... وهو يغتنم كل فرصة ليقارن بين الشرق والغرب ، مركزا على سمات المسلمين الروحية ، مبسطا خلاصة أفكاره التي تعكس نظرته إلى العالم كله ...

ولا يتوقف جوته عن التغني بشرقه الجميل ، بل ينفذ إلى اسراره مطلقا لخياله العنان في تصويره أروع تصوير ، محاولا قدر الإمكان تحليل حضاراته وآدابه وأديانه :

الله ، الله هو العدل
يوزع بين الناس بالعدل
فلتسبحوا إذن بهذا الاسم المكين
من بين أسمائه المائة ! أمين ،

IV خاتمة

1 - لقد أعطى جوته للشرق الإسلامي صورة تختلف كل الاختلاف عن تلك الصورة التي سادت في الفترات السابقة : فشرقه جميل وطيب الشمائل ، فطري ومهذب ، متسامح ، ومحب للحكمة ، والتأمل ومؤمن بقدر الخالق الجبار . أما الإسلام - في نظره - فهو التقوى نفسه ، دين عقلاني وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس في الحياة .

2 - لقد اتخذ جوته الشرق ستارا لتحليل أفكاره والتعبير عن مشاعره ، أو بعبارة أخرى : استعمله إطارا ، يصب فيه تأملاته عن الدنيا والآخرة . ولقد كان بارعا في اختيار رموزه ومشاهده الشرقية وايصالها إلى قرائه بأسلوبه العذب والمرح بالعبارات الحرة من كل قيد .

3 - كان جوته يريد أن يجمع بين الكتلتين الضخمتين التي يتكون منهما العالم (الشرق والغرب) . . . كان يتمنى ان يصهرهما في بوتقة واحدة . فهو لا يقيم للقوميات أي وزن ولا يعترف للحدود بقيمة . من أجل هذا كان يحلم بأن يصبح للإنسانية أدب واحد مشترك تمده روافد الأمم جميعا قديمها وحديثها بمياهها العذبة الصافية .

4 - كان شعار جوته قائما على الاهتمام بالقلب والحرية ... بذل كل عبقريته في مقاومة التعصب والطغيان ... كان يريد البناء : بناء عالم جديد خال من الاضطهاد وقائم على الأخوة والمحبة والمساواة .

الهـوامـش

1 - بيتر بورنر ، غوته ، ترجمة أسعد رزق ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1975 ، 244 .

2 - ينظر : أحمد معوض ، أضواء على جيته ، القاهرة ، الدار العربية لنشر الثقافة العالمية ، 1961 ، وكاترينا مومسن ، غوته وألف ليلة وليلة ، ترجمة أحمد حمو ، دمشق، 1980.

3 - ينظر : الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1980، ص 3- 4 .

4 - نفسه

5 - كاترينا مومسن ، م .س ، 405 – 406 .

6 - الديوان الشرقي ن 43 .

7 - مقدمة الديوان الشرقي لعبد الرحمن بدوي ، 2 – 3 .

8 - صور هؤلاء الأدباء في كتاباتهم عوالم جديدة تختلف تماما عن عوالمهم التي يعيشون فيها ، فنقلوا قراءهم إلى بلدان بعيدة ليروا فيها مشاهد متنوعة وليدركوا ما لأهلها من طباع وخصال .

9 - كان هذا الشرق الذي التجأ اليه الفنانون الاوروبيون واسعا وشاسعا . وقد وصفوه أوصافا متنوعة ، وتغنوا بجماله وسحره وألوانه وأطلقوا لخيالهم العنان في تصويره أروع تصوير .

10 - محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، بيروت ، دار العودة ، 90 – 91

11 - يعترف جوته ، في أكثر من مناسبة ، بأنه كان يحس إحساسا عميقا بوجوب الفرار إلى الشرق أثناء الأزمات الحادة ...

12 - مقدمة عبد الرحمن بدوي في " الديوان الشرقي "6 - 7 .

13 - قصة هذا الينبوع أو عين الحياة من الأساطير التي نسجها الناس حول شخصية الاسكندر الاكبر . فالرواة يزعمون أن الأسكندر قام بحملة كبرى من أجل الوصول إلى هذا الينبوع الذي كان يقوم على سدنته الخضر ،ولكنه لم يفلح في العثور على الماء الذي يعيد الشباب إلى شاربه .

14 - يشبه جوته ، في إحدى قصائده ، الحب الذي نشأ بينه وبين مارينا بالحب بين يوسف النبي وزوليخا امرأة العزيز ... فيقول : لا عجب في أن تفتن هذه المرأة بيوسف ، فلقد كان الرجل جميلا ، وهي أيضا كانت جميلة ، وفي استطاعة كل أن يسعد الاخر ويكون له ينبوع نعيم .